التخلص منها فحسب، بل ما إن ضعفت عزائمها، واسترخت قواها، حتى فرضت عليها الدول الاوروبية معاهدات وامتيازات اخرى أثقل من سابقاتها، واشد تقييدا لحريتها. فإذا بالدولة التي كانت تحسب نفسها بالأمس مرجع العالم، وتتوهم ان هذه العقود التي كانت تعقدها منحة وسماحة تصبح كدودة الحرير في شرنقة من عمل يدها ما إن اكتملت حتى جعلتها سجينة لا تستطيع حراكا»[٣٠] . وعندما بلغ التطور الرأسمالي مرحلة متقدمة في القرن التاسع عشر، تزايدت أطماع الدول الاوروبية في السلطنة العثمانية. وبرز العامل الاقتصادي كمحرك للصراع بين الدول الاوروبية في السلطنة العثمانية. وبرز العامل الاقتصادي كمحرك للصراع بين الدول الكبرى حول تركيا، وبشكل اكثر حدّة من ذي قبل، حيث لم تغفل الدول ذات المرافق التجارية التماس مصالحها الاقتصادية عندما كان العثمانيون في عز قوتهم يوم قفزوا عبر الدردنيل الى القارة الاوروبية. وتراكضت جمهورية فينيسيا (البندقية) لتوقيع معاهدة تجارية مع تركيا في عام ١٤٧٩، والتي كانت تعتبر في طليعة البلاد التجارية، ثم حذت حذوها كل من بولونيا وروسيا واسبانيا وفرنسا وغيرها.

ولم تكن خافية يومها مطامع كل من روسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا في السيطرة على الممتلكات العثمانية، حيث برز على أثرها ما يسمى «بالمسألة الشرقية» في الوقت الذي كانت فيه السلطنة تعاني سكرات الموت، يتجمع من حولها الورثة، ينتظر كل منهم حصته بعد الوفاة. وبرز الدور الفرنسي والانكليزي بشكل واضح فيما يتعلق بالمنطقة العربية وفلسطين خاصة، لاعتبارات ودوافع متعددة، حتى كان مؤتمر بال الصهيوني الفرصة المناسبة فيما يتعلق ببريطانيا على وجه الخصوص.

موقف بريطانيا من الصهيونية

في الواقع، ان تبنّي بريطانيا للحركة الصهيونية كان نابعا اولا وقبل كل شيء من ضرورة تأمين مصالحها وامتيازاتها في المنطقة العربية عبر سيطرتها على المواقع الستراتيجية المهمة، والتحكم بالنقاط والطرق التي من شأنها الوصول، دون أية عراقيل، إلى الهند، التي كانت تعتبر درّة التاج البريطاني، نظراً لما كانت توفره هذه المستعمرة من ثروات وخيرات ورجال تعتمد عليها بريطانيا اعتمادا مهما. وقد «كانت انكلترا تحرص دوما على الحفاظ على طرق مواصلاتها مع الهند، إذ ان مصالحها هناك قضية حياة أو موت بالنسبة إليها»[٣١] . وكان التنافس على اشدّه بين الدول الاوروبية فيما يتعلق بممتلكات السلطنة العثمانية، وكانت بريطانيا تتمسك بالمحافظة على وحدة الامبراطورية العثمانية في آسيا. ولكن تخوف الانكليز من التوسع الروسي على حساب تركيا، وكذلك النمسا وفرنسا، دفع ببريطانيا للتخلي عن سياستها المحافظة وانتهاج سياسة جديدة تستطيع من خلالها تأمين مصالحها، والحيلولة دون صدام مع الدول الاوروبية الاخرى. ومن هنا قال ونستون تشرشل «إذا كانت روسيا لتزداد قوة واتساعا على حساب تركيا، فإن مصالح بريطانيا في الشرق الاوسط وفي الهند ستتعرض إلى مخاطر جسيمة. من هنا كانت بداية المسألة الشرقية كما كانوا يسمونها، تلك المسألة التي استأثرت باهتمام الدول الاوروبية واوقعتها في حيرة وارتباك حتى نشوب الحرب العالمية الاولى»[٣٢] .

وعلى هذا الاساس، كانت بريطانيا تضع فلسطين في سلّم حساباتها نظرا لموقعها المهم على البحر المتوسط، وكذلك الحال فيما يتعلق بقناة السويس ومصر. وهي التي قاتلت نابليون بونابرت وحملته على مصر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. ولانها كانت تدرك ذلك، فقد كانت اول دولة تنشىء لها قنصلية في القدس عام ١٨٣٨ كأول قنصلية اوروبية هناك، كما